الحضـــــارة المتبرجة

الأستاذ محمود محمد شاكر

أعطيت هذه الحضارة الأوربية الحديثة أعظم روح من الفن كان فى الأرض من لدن آدم إلى يوم الناس هذا . وهذه الروح الفنية — على سموّها فى بعض نواحيها إلى غاية ما يتسامى إليه الخيال الفنى — تتساقط وتتدنى وتنحدر من جوانبها إلى أدنأ ما يبتذل من الفن السامى المثير لأشأم الغرائز الحيوانية فى الإنسان . وبهذه الرُّوح الفنية عالجت الحضارة الأوربية مشكلة الحياة السريعة الدائبة المثقلة بأعباء العمل ، فاتخذت لكل مَلَل راحة واستجماماً بلغت بهما غاية اللذة الفنية ، تلك اللذة التى تجعل الأعصاب المجهدة إذا أوت إليها كأنما تأوى إلى بيت ذى رونق وزخرف وعطر وضوء ينغمر ألحاناً من الفن الموسيقى ، فإذا بلغته استنامت بإجهادها على حشايا الخز والديباج ، نعومة ولينا ترسل فى الأعصاب لذة تمسح الجهد حتى يسكن ويخف ثم يتبدد

وكانت المرأة هى فنّ الفنّ للانسانية ، وهى الشاطئ الوادع لبحر الحياة المتموج ، وكانت الظل الرطيب فى بيداء موقدة تحت أشعة الشمس المحرقة ، وكانت هى السكن للقلب السافر دائماً فى طلب أسباب العيش والحياة . فجاء فن المدنية الحديثة فجعل الشاطئ بحراً آخر يموج موجاً فنياً مغرياً يجعل السباحة المجهدة فيه ضرباً من الراحة ، وتركت الظل الرطيب حرارة مستعرة تحرق ، ولكنها تحرق بلذة ، وفرشت السكن حتى مدته طريقاً بعيداً مترامياً يسافر فيه القلب سفراً بعيداً فى أحلام وفتنة وجديد لا يتقادم

وبدأت المرأة بدءها لتجعل الحضارة فناً جديداً من تجميل الحياة للمكدودين . ثم جاءت الحرب الماضية ، فخرجت المرأة من وطيسها المتوقد قد استوت ولذّت وطابت ، وتجدّدت عقلاً وروحاً وجمالاً ، وشاركت أسباب الحضارة فى إيجاد حل جديد لمشكلة الإنسان العامل المنطلق فى أعماله بسرعة وكدّ وإرهاق وعناء ، فاتخذت فن العقل السامى عبداً تصرّفه فى إنشاء لذات الحياة إنشاءً عبقرياً تخشع لسلطانه النفس خشوعاً راضياً ، ثم تمشى فى جنّاته : تأبى أن تجد راحتها إلا راحة فيها ذلك السحر الناعم الرقيق الفاتن ، الذى يصنعه بنان مؤنث يقول للأشياء : كونى جميلة ، فتكون

وأعطت العين للمرأة أشواقها المستبدة ، وزَينت المرأة للعين متاعها المتجدد ، فاستيقظت الغرائز كلها من هزة الأشواق وحب الاستمتاع ، وانحدرتْ فى دم الرجل قطرات الفتنة المؤنّثة ، وسطعت فى كيانه كله نفحات العطر المعربد ، وألفت المرأة ظلها على كل شىء ألواناً تتخايل بالفن المنسّق البديع ، وصبغتْ كل شىء فى حلاوة أنوثتها ، حتى لم يبق للرجولة ولا للإنسانية هوًى فى الحياة إلا وهو من المرأة وإلى المرأة وفى سبيل المرأة .

وصارت المرأة هى المحور الذى تدور عليه الإنسانية فى فلك الشهوات الضارية التى تنزع منازعها فى حياة الإنسان باقتدار وقسر ، وسار العالم كله على ذلك حتى ما يُحس ذو شعور أنه يعمل من أجل المرأة ، مع أنه ما يعمل عامل إلا من أجلها . فهو فى نشوة متصلة لا تنقطع فى عمله ، لأن الغرائز المنتشية هى التى تحكم وتصرّف ، وبذلك لم يبق له من الفكر ما يستطيع به فى هذا الأمر أن يتبين حقيقة التهار المسكر الذى يتدافع به فى حياته

أصبحت الحضارة الأوربية بعد ذلك فناً جميلاً يتوالى فيه زخرف الحسن مبعثراً ومنتظماً ، لأن الأعمال كلها قد احتملتها إرادة واحدة ، هى إرادة جعل الحياة أجمل مما هى لتكون أمتع للعين والقلب والنفس والغريزة ، مع إسقاط مطالب الروح السامية المتحررة من استعباد الشهوات

ومن عجيب تصريف القدر فى الحياة أن يجعل أعظم شىء فيها هو أقل الأشياء حظاً من الحياة ، فالروح التى هى أعظم ما وجد فى الحياة ، ترجع فى غمرة اللذات والشهوات وأمواج الغريزة الطاغية ، أقل ما وجد فى الحياة ، حتى ما يكون لها نصيب منها إلا ذلك الجو الأغبر القاتم فى عزلة موحشة ، بعيدة عن تحقيق قداتها الروحانية الحلوة التى تبقى حلاوتها خالدة فى الهرم بعد الشباب ، وفى العجز بعد القدرة ، وفى السكون بعد الحركة ، وفى الموت بعد الحياة . وتقف الروح متغضنة جافة متكسرة تنظر نظرة متألمة إلى ما يصيب الإنسان من اللذات الطارفة الطارئة التى تتحول فى نار الشهوات رماداً بعد توقد واشتعال

فاعتزال الروح فى هذه المدنية الأوربية قد جعل العالم يعيش ليحترق بأسرع ما يمكن أن يحترق ، وهـذا هو العلة فى امتياز هذه المدنية بالسرعة والنشاط والتوقد ، واحتمالها متاعب الجهد المضنى فى سبيل استغلال أقصى ما يستطيع الإنسان من الإنتاج فى العمل ، ثم امتيازها بنظام الطبقات الذى يجهد جهدها أن تستره بتلك الزينة الفنية العلمية الظاهرة ، لئلا يكون معنى ذلك أن المدنية تريد أن ترتد بالناس إلى الحالة الطبيعية الوحشية اللئيمة التى ينتجها اجتماع همجى مستبد لا يعقل ، وإنما يكون فيه اللذة التى تسكر العقل ، والظلم الذى يثير العقل ، والأثرة التى تطغى العقل

وجاء اشتراك المرأة اشتراكاً عملياً فى الحياة الأوربية العامة ليقذف الروح بعيداً فى عزلتها ، وبدنى غريزة تشتاق إلى غريزة تشوق ، فكذلك بدأت الأنظمة الأدبية والاقتصادية والمدنية تخضع لسلطان الأشواق وحدها دون سلطان الروح والعقل ، وسلطان الأشواق هو الذى يكون غرضه دائماً أن يضيق ويتخصص وينفرد بأسباب شوقه ، وسلطان الروح والعقل هو الذى يتراحب ويشمل ويعم ويوجد المساواة بين الناس ، مهما لقى من العنت والقسوة والمشقة فى وضع النظام الذى يريد أن يجعل به الناس أحراراً فى قيود من الإنسانية السامية المترفعة عن الذل كما تترفع عن بغى السطوة ، والتى تستنكر العبودية الخاصة كما تستنكر الحرية الفوضى ، والتى تأبى تحكم طبقة فى طبقة كما تأبى ثورة طبقة على طبقة

ولكن تبرج الحضارة الأوربية فى ذلك الخلق الجميل الفتان ذى الحيلة والفتنة والسحر الذى يعيش فى صورة الأنثى ، قسر هذه المدنية على الخضوع لسطوة الشوق المتمرد ، فقام النظام كله على هوى واحد إلى المرأة . فالعامل الذى يعمل يريد أن يستغل الحياة بين يديه لا ليعيش ويعيش معه أهله وبنوه وتلك الدولة الصغيرة التى تسمى البيت ، بل هو يعمل ليجد أولاً تلك اللذة الحاكة المتعة التى يستمتع بها فى ظل تلك الدولة العظيمة التى تسمى المرأة

وإذا بدأت الطبقة العاملة من الشعب تجد حوافز أعمالها فى شىء بعينه ، كانت كل أعماله من الأدنى إلى الأعلى لا تجد فى أعمالها إلا هذا الحافز الواحد ، وإذا تشابهت الحوافز تشابهت الغايات ، وما يفترق هذا عن ذاك إلا بأن لكل شىء أسلوباً ، ومهما اختلفت الأساليب فى هذا فلن تختلف فى الدلالة إلا بمقدار

الأصل العملى الذى يوجب هذا الاختلاف

والمكان الذى نصت عليه عروس النفس الإنسانية فى هذه المدنية الحديثة ، هو الحافز وهو الغاية ، ولذلك تجد هذه المدنية قد تبرجت لأبنائها تبرج الفن المبقرى الحافل بأسباب التحكم المستمر فى أعمال كل حى . ولما كانت هذه الحوافز على تعددها إنما هى فى الحقيقة اختصاص فردى لكل واحد من الناس — لأن اللذة لا تقبل الشركة والتعدد — ولكل اختصاص عيب هو الأثرة ، والإصرار على التفرد ، ومعاندة الناس بعضهم بعضاً فى سبيل هذا التفرد — وقع التضارب والتعادى والانتقاض فى كل عمل ، وصار ما يبنى لا يكاد يتم حتى يلقاه ما يهدمه ، وبذلك كان نظام هذه الحضارة مع روعة ما يبنى يقابله نظام آخر فى الهدم والتدمير ، يخيف هذا بقدر ما يروع ذاك

ولولا هذا التبرج الفاجر فى هـذه المدنية ، ولولا هذه الشهوات التى انطلقت ترشف من مسكرات الفن المتبرج ، ولولا هذه الثرائر الجامحة فى طلب السيطرة لإدراك غاية اللذة ، لما كان النظام الاقتصادى الحاضر فى هذه المدنية هكذا مهدماً مستبداً مستأثراً باغياً ، ولما تماندت القوى الدولية هذا التماند الذى أفضى بالعالم إلى الحرب الماضية ثم إلى هذه الحرب المتلهبة من حولنا اليوم ؛ وذلك فى مدى خمسة وعشرين عاماً ، لم يستجمع العالم خلالها قوته ، ولم يتألف ما تفرق ، إلا ليضيع قوته مرة أخرى ويتفرق

إن الحضارة فى هذه السنوات التى نبعت الحرب الماضية كانت ترفه عن المكدودين بالعمل ترفيهها الحلو الفنى المتبرج لتعطى القوى العاملة نشاطاً جديداً من النشوة ، أى من الحالة التى يفقد فيها العقل والروح قدرتهما على التحكم فى نظام الحياة . وأقدمت المرأة الأوربية إقدامها الجرىء فجلبت زينتها من كل خيال ومن كل فن ومن كل سحر ، لتبين الحضارة على الحياة والبقاء فى هذا الجو الذى اختارته وعملت له . وكان هذا الإقدام ضرورة طبيعية للمقدمات التى سبقت عصر الحرب الماضية ، ثم للحرب نفسها . فإن المرأة التى فقدت زوجها ، والفتاة التى أضلت حبيبها ، والبنت التى أضاعت قيمها من أب أو أخ أو عم ، ... وبقيت فى موج الحياة حيرى متلددة ، لم تجد بداً من الإقدام على الطريق المجهول بجرأة واندفاع وتهور ، فلما

أوضعت" في الطريق المجهول وأسرعت خطاها جرى العالم وراءها يطلبها؛ فلم تجد بدًّا من أن تأخذ منه أكثر ما تستطيع لتجتلب لزينتها أحسن ما تستطيع، وتطارد الصيدُ للصائد في كل وجه حتى اصطدم العالم كله هذا الاصطدام الهائل الذي لا يدري إلى أين ينتهي ولا كيف ينتهي

وستخرج المرأة من هذه الحرب أيضاً كثيرة فاتنة حائرة لا تجد أباها ولا زوجها ولا أخاها ولا حبيبها، وستكون في عينيها تلك النظرة الحزينة الضارعة التي تقول لك: أنقذني ! أنقذني ! ! أنا وحدي، لا أجد من يعولني ! وسينظر العالم الجديد إلى هذه المرأة بالرحمة والعطف والحنان، كما نظر للّواتي كنّ بعد الحرب الماضية. وستعمل المرأة يومئذ لتكتسب الرجل في كل وجه، ثم لا تلبث أن توجد من بقايا العالم المتحطم سحراً جديداً لمدنية ساحرة، وبذلك يرتد العالم إلى النظام الاقتصادي الفاجر المبني على اللذة وطلبها والبحث عنها، فتكون أنظمته كلها قائمة على الاستبداد والفجور في الاستبداد

ويومئذ يبدأ تحقيق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشراط الساعة وما يكون في أعقاب الدهر، إذ «يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»، وحتى «ترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به». وما يكون ذلك إلا يوم يتحقق للحياة المدني الفني المحض الذي لا يعرف قاعدة اجتماعية يحرص على تحقيقها للاجتماع، والذي يرى الحرية انطلاقاً من قيد الأخلاق التي تقسره على مصلحة الجماعة دون لذة الفرد، وتتبرج الحياة تبرجاً هائلاً يحمل العقل غريزة جديدة تشتهي، والروح خلقاً منبوذاً حائراً يطوف على هذه الفتن كما يطوف الصعلوك على مائدة ملكية. ويومئذ يرفع العلم لأنه سيُستعبَدُ في إيجاد اللذات، وتفارقه الروح النبيلة التي لا يكون العلم إلا بها علماً، ولا يبقى في الأرض إلا الجهل الأحمق الذي لا يعرف إلا السيطرة بحماقة، والأثرة بكلب، وتكون المرأة هي علم الحياة الجديدة الذي يزق الرجولة القليلة في جنب الشهوات المنيفة، ويغرق الفضيلة في طوفان المتعة الجميلة التي تبعث في الأعصاب المجهدة نشوة مسكرة.

محمود محمد شاكر

اعظم تجربة !
ولو أن السنين التي انقضت من عمرك لم يمكن إرجاعها ثانية فإن لؤلؤ تيطس
لابد وأن يعيد لك قوة الشباب ونشاط الرجولة
في الواقع أن لؤلؤ تيطس هو تجربة تترك أثراً دائماً في نفس كل من يستعمله من الذين ضعفت قواهم التناسلية لأي سبب كان، سواء كان ذلك ناتجاً من مرض أو من تقدم السن، أو من الإفراط، أو من أي باعث نفساني كالحزن وغيره. ويعود الفضل في اكتشاف طريقة تنقية وتعادل تركيب الهرمون العجيب الذي يحتوي عليه لؤلؤ تيطس، إلى معهد التناسليات بمدينة برلين الذي توصل إلى هذه النتيجة العلمية الباهرة بعد القيام بأبحاث مضنية دامت عدة سنين بحيث أصبح تجديد الشباب مضموناً باستعمال هذا المستحضر. طالع الكتيب العلمي «الحياة الجديدة» فتعرف كثيراً من الأمور المتعلقة بالحياة التناسلية التي قد تكون مجهولة لديك إلى الآن. وهو يرسل إليك نظير ٥ مليمات للنسخة الفرنسية أو الإنجليزية المحلاة برسوم ذات ٥ ألوان و ٣ قروش للنسخة العربية.
جلاتوزماين صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر
(سجل تجاري ٥٢٢٧)

الفصول والغايات
في تمجيد الله والمواعظ
وهو معجزة أبي العلاء المعري في النثر

لم يبق منه إلا نسخ محدودة
فاطلب نسختك قبل نفادها
يباع في إدارة الرسالة وثمنه ٣٠ ص